الذَّوْقُ الإسلاميُّ

إنّ الإسلامَ عقائدُ ، وعباداتٌ ، ومعاملاتٌ ، وآداب ، فمن هذه الآدابِ الإسلاميةِ مصطلحٌ جديدٌ شاعَ بين الناسِ ، ألاَ وهو الذَّوقُ ، ونقصد بالذّوقِ أدبياتِ التعاملِ مع الناسِ ، وجمالَ التعاملِ بأشكالهِ المتعدِّدةِ ، والنفسَ المرهفةَ الجميلةَ ، والموقفَ الجميلَ ، والتصرّفَ الجميلَ ، والحركةَ الجميلةَ ، واللمسةَ الجميلةَ ، والكلمةَ الجميلةَ ، وجمالَ النظامِ ، وجمالَ النظافةِ ، وجمالَ الأناقةِ ، وجمالَ التناسقِ والانسجامِ ، وجَمالاً في البيتِ ، وجمالاً في مكانِ العملِ ، وجمالاً في الطريقِ ، وجمالاً في الأماكنِ العامّةِ .

ونقصدُ بالذّوقِ النفسَ الشفّافةَ التي تفهمُ الخطأَ ، وتقدِّرُ وقوعَها فيه من نظرةِ العينِ ، وابتسامةِ الوجهِ .

إنّ الحياءَ شعبةٌ من الإيمانِ ، والحَيِيُّ هو الذي يفهم خطأَه من لمحةٍ عابرةٍ ، ونظرةٍ حائرةٍ .

الناسُ أجناسٌ ؛ فمنهم من اعتقدَ خطأً أنّ الذّوقَ ، والأدبَ ، والخُلقَ الرفيعَ ، والرّقيَّ الحضاريَّ قِيَمٌ غربيةٌ خالصةٌ ، ولا تُكتسَبُ إلاَ في المدارسِ الأجنبيّةِ .

ومنهم مَن تربَّى على الأدبِ والرقيِّ والذّوقِ ، وظنّ أنّ الإسلامَ عكسُ ذلك تماماً ، فتراه حينما يسمعُ كلمةَ (متديّن) ينتظرُ منه عدمَ اللياقةِ ، وعدمَ النظافةِ ، وعدمَ النظامِ ، فصارَ الذّوقُ عند هذا الإنسانِ الواهمِ حاجزاً بينه وبين التديّنِ .

ومِن الناس مَن ظنّ أنّ الإسلامَ في المسجدِ ، ليس غير ! لذلك يقول : « دعَ ما للهِ لله ، وما لقيصرَ لِقيصرَ » ، وبالتالي فالأدبُ والرقيُّ والحضارةُ ، وكذلك إدارةُ الحياةِ جميعها ليس لها علاقةٌ بالدِّينِ ، والحقيقةُ أنّ ما للهِ لله ، وما لقيصرَ للهِ .

إنّ الذّوقَ والأدبَ ، والرقيَّ ، والحضارةَ ، والشفافيةَ ، والجمالَ ، والنظافةَ ، والنظامَ هي أصولٌ كبيرةٌ مِن أصولِ هذا الدِّينِ ، وإنّ الإسلامَ جاء لتنظيمِ الحياةِ وإدارتِها والسموِّ بها ، فالإسلامُ هو الحياةُ الكاملةُ .

والإنسانُ المتديِّنُ الذي فهمَ الإسلامَ عبادةً شعائريةً ، ليس غير ، صلاةً وصياماً وذِكراً وتسبيحاً ، فهو حريصٌ على هذه العبادةِ ، ولكنه لم يفهمْ أنّ الذّوقَ جزءٌ أساسيٌّ مِن أخلاقِ المسلمِ ، وأنّ اللهَ لا يرضيه أنْ يؤذي المسلمُ الناسَ بكلمةٍ أو بتصرُّفٍ ، فإذا عاملَ الناسَ بغلظةٍ وشيءٍ من عدمِ الذّوقِ ، كانت النتيجةُ أنه يفتنُ الناسَ عن دينِهم ، فيصبحُ تديّنُه سبباً لبُعْدِ الناسِ عن الإسلامِ ، وتجدُ مَن حوله يقول : منذ أنْ تديّنَ أصبحَ فظًّا غليظاً غيرَ مهتمٍّ بمَظهرِه .

فالنبيُّ ﷺ سيّدُ الخَلْقِ ، وحبيبُ الحقِّ ، أُوحيَ إليه ، وأوتيَ القرآنَ ، وأوتيَ المعجزات ، تمثَّلَ فيه الكمالُ البشريُّ ، حتى قال الله له مخاطباً :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] ، وأقسمَ اللهُ بعمُره الثمينِ فقال :

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر : ٧٢] .

النبيُّ ﷺ جميلُ الخُلقِ ، حسنُ النطقِ ، أوتيَ جوامعَ الكلمِ ، عصمَه اللهُ من أن يُخطئَ في أقوالِه ، وفي أفعالِه ، وفي إقرارِه ، وفي صفاتِه ، ومع كلّ هذه الخصائصِ ، ومع كلّ هذا الكمالِ والقمّةِ يقول الله له :

﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] ، فكيف بإنسان ، لا بسيّدِ الخَلْقِ ، ولا بحبيبِ الحقِّ ، ولم يُوحَ إليه ، ولم يُؤتَ جوامعَ الكلمِ ؟ وهو مع هذا فظٌّ ، غليظٌ في أمْرِه بالمعروفِ ونهيهِ عن المنكرِ ، متجهِّم في نظراتِه ، قاسٍ في تعليقاتِه .

الأدبُ مع الوالدين والذّوقُ في التعاملِ معهما

في المنهجِ الإلهيِّ إرشاداتٌ كثيرةٌ جدًّا في التعاملِ مع الوالدين ، نكتفي بواحدة منها ، هي الاستئذانُ للدخولِ على الأبِ والأمِّ ، تجسِّدُه آيةٌ في القرآنِ الكريمِ ، تبيِّنُ أدبَ الدخولِ ووقتَه ، يقول اللهُ تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ﴾ [النور : ٥٨] .

آيةٌ في القرآنِ الكريمِ ، الذي تعبَّدَنا اللهُ بتلاوتِه إلى ساعةِ اليقينِ ، ترسِّخُ قاعدةً من قواعدِ الذّوقِ ، هل بعد ذلك نقولُ : إنّ الإسلامَ ينظِّمُ

الحياةَ في المسجدِ ، ليس غير ، أم إنّه ينظّمُ الحياةَ كلَّها ؟ إنَّه ينظِّمُ الحياةَ حتى في غرفةِ النومِ !

جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : « يَا رَسُولَ اللهِ ، أَأَسْتَأْذِن عَلَى أُمِّي ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : نَعَمَ ، قَالَ الرَّجُلُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، أَأَسْتَأْذِن عَلَى أُمِّي ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : نَعَمَ ، قَالَ الرَّجُلُ لِلْمَرَّةِ الثَّالِثَةِ : يَا رَسُولَ اللهِ ، أَأَسْتَأْذِن عَلَى أُمِّي ؟ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : أَتُحِبُّ أَنْ تَرَاهَا عَارِيَةً ؟ قَالَ : لاَ يَا رَسُولَ اللهِ ، فَقَالَ ﷺ : فَاسْتَأْذِنْ عَلَى أُمِّكَ »[1] .

الأدبُ والذّوقُ في التعاملِ مع الزوجةِ

هناك توجيهاتٌ كثيرةٌ في التعاملِ مع الزوجةِ نكتفي بواحدةٍ منها :

مِن الأزواجِ مَن يهدِّدُ زوجتَه مراراً وتكراراً ، هزلاً وَجدًّا ، قائلا : سأتزوَّجُ عليكِ ، أينَ الذّوقُ في التعاملِ مع المرأةِ ؟ ومنهم من يَعُدُّ هذا مِن المزاحِ ، في حين أنّ هذا الأمرَ يجرحُ المرأةَ جرحاً شديداً ، ويرضُّها رضًّا بليغاً ، ولا تنساه .

وإليك هذا الحديث الذي دار بين النبيِّ ﷺ والسيدةِ عائشةَ ، فلقد جلستْ السيدةُ عائشةُ مع النبي ﷺ ، وأخذتْ تقصُّ عليه قصة إحدى عشرة امرأة يحدِّثن عن أزواجهنّ ، وظلت تحدِّثُ حتى وصلتْ إلى قصةِ الزوجِ الأخيرِ ، وآخرُ الأزواجِ اسمُه أبو زرْعٍ ، كان رقيقاً مع زوجته ، يحبّها وتحبّه ، عاشت معه أحلى الأيام ، قَالَتْ عَائِشَةُ : قَالَ لِي

(١) البيهقي في السنن الكبرى (١٣٣٣٦) عن عطاء بن يسار .

رَسُولُ اللهِ ﷺ : « كُنْتُ لَكِ كَأَبِي زَرْعٍ لأُمِّ زَرْعٍ »[١] ، وفي بعض الروايات : « غَيْرَ أَنِّي لاَ أُطَلِّقُكِ »[٢] .

هذا ذوقٌ رفيعٌ في التعاملِ مع الزوجةِ .

سألَتْهُ مَرّةً : « كَيْفَ حُبُّك لِي ؟ فَقَالَ لَهَا : كَعُقْدَةِ الحَبْلْ ، فَكَانَتْ تَسْأَلُهُ مِنْ حِينٍ لآخرَ : كَيْفَ الْعُقْدَةُ ؟ فَيَقُولُ عَلَى حَالِهَا »[٣] ، أراد أنْ يطمْئِنها .

الذوقُ في الطريق

كنا في البيتِ مع الوالدين والزوجةِ ، فإذا خرجنا إلى الشارعِ ، فثمة ذوقٌ .

لا ترفعوا أصواتكم

من الذّوقِيّاتِ المفقودةِ في الشارعِ تلك الأصواتُ المزعِجةُ لأبواقِ السياراتِ التي يتفاخرُ بها أصحابها ، صغيرةً كانت أو كبيرةً ، فتجد صاحبَ المركبةِ يقف أسفلَ البيتِ ، ويطلقُ بوقَ مركبتِه منادياً مَن في الطابقِ العلويِّ ، حتى لا يكلِّف نفسَه الصعودَ إليه ، وهو بهذا يتعبُ الآخرين باستخدامِ آلةِ التنبيهِ ، فيأتي الإسلامُ ويردُّ للشارعِ ذوقيّاتِه المفقودةَ .

يقولُ الله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ

(١) البخاري (٤٨٩٣) ، ومسلم (٢٨٤٨) .
(٢) ذكرها أبو بكر البغدادي في الفصل للوصل المدرج (١/ ٢٤٧) .
(٣) أبو نعيم في الحلية (٢/ ٤٤) .

صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ [الحجرات : ٤ـ ٥] .

ينبغي أن نفهمَ الآيةَ على نحوٍ موسَّعٍ ، نَعَمْ ، إنّ الآيةَ تتحدَّثُ عن النبيِّ ﷺ ، ولكنّها تنظِّمُ وتهذِّبُ سلوكياتِ الناسِ .

إنّ مِن حقِّ الناس عليك ألاّ تزعجَهم ، فمنهم النائمُ ، ومنهم الطالبُ الذي يدرسُ ، ومنهم المريضُ ، ومنهم الذي يصلِّي ، واعلم أنّ الشارعَ ليس مُلكاً لك وحدَك .

افسحوا الطريقَ

ومن التصرُّفاتِ العجيبةِ أنّك تجدُ سائقَ السيارةِ لا يسمحُ للسيارةِ التي خلفَه أنْ تتجاوزَه ، وإذا سألتَه : ما السبب ؟ لم يجبْ ، وأدهى من ذلك أنّ هذا التصرّفَ أصبح عملاً لا شعورياً مِن كثرةِ ما تعوّدنا عليه ، ولكنّ الإسلامَ يعلِّمك الذّوقَ في هذه المواقفِ ، يقولُ اللهُ تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [المجادلة : ١١] .

وينبغي أن نفهمَ الآيةَ بمعناها الواسعِ .

افسحوا ليس في المجالسِ فقط ، ولكنْ في الطُّرقِ ، ﴿ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ ، ومِن قلّةِ الذّوقِ أنك تضيّقُ الطريقَ على الناسِ ، يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « ثلاثٌ يُصَفِّين لك ودّ أخيكَ ، منها : وأنْ تفسحَ له في المجلسِ » .

وإليكم هذا الموقفَ الجميلَ .

بينما كان النبيُّ ﷺ يجلسُ في المسجدِ إذ جاء رجلٌ من الأعرابِ فتزحزحَ له النبيُّ ﷺ ، معَ أنّ المسجدَ لم يكن ممتلئاً ، فقال هذا الأعرابيُّ ، وقد لفتَ نظرَه هذا التصرفُ : يا رسولَ اللهِ ، لمَ تزحزحتَ ؟ إنّ في المسجدِ سَعَةً ، فقال له النبيُّ ﷺ : « حقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ إِذَا جَاءَ أَخُوهُ أَنْ يَتَزَحْزَحَ لَهُ »(١) .

مَن يقولُ بعد هذا : خذوا الذّوقَ ، وتعلَّموه من الغربيّين ؟!

إماطةُ الأذى عن الطريقِ صدقةٌ

هل من الأدبِ والذّوقِ إلقاءُ القمامةِ في الشارع ؟ تجدُ الرجلَ ينظرُ يميناً وشمالاً ، ويقول في نفسِهِ : هل يراني أحدٌ ؟ ويبدأُ يختلسُ النظراتِ ، كالذي يسرقُ شيئاً ، ثم يلقي بالقمامةِ ، يقول النبي ﷺ : « . . . وَتُمِيطُ الأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ . . . »(٢) .

فما بالُنا بمَن يلقي الأذى في الطريقِ ؟! عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ ، أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً ، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الإِيمَانِ »(٣) .

ومعنى ذلك أن إماطةَ الأذى عن الطريقِ جزءٌ من الإيمانِ .

---

(١) البيهقي في شعب الإيمان (٨٩٣٣) عن واثلة بن الخطاب القرشي .
(٢) مسلم (١٠٠٩) ، أحمد (٨١٦٨) .
(٣) مسلم (٣٥) ، الترمذي (٢٦١٤) ، ابن ماجه (٥٧) .

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الْبَقْلَةِ الثُّومِ ـ وقَالَ مَرَّةً ـ : مَنْ أَكَلَ الْبَصَلَ وَالثُّومَ وَالْكُرَّاثَ فَلاَ يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا ، فَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ »[1] .

فالمدخِّنُ مثلاً يؤذي مَن حوله ، إذن بناءً على هذا الحديثِ الصحيحِ فإنّ الملائكةَ تتأذّى منه ، وقد ثبتَ أنّ الذي يجالسُ المدخِّنَ يتأذّى بثلثِ أخطارِ التدخينِ .

حقُّ الطريقِ

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ عَلَى الطُّرُقَاتِ ، فَقَالُوا : مَا لَنَا بُدٌّ ، إِنَّمَا هِيَ مَجَالِسُنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا ، قَالَ : فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلاَّ الْمَجَالِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهَا ، قَالُوا : وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ ؟ قَالَ : غَضُّ الْبَصَرِ ، وَكَفُّ الأَذَى ، وَرَدُّ السَّلاَمِ ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ ، وَنَهْيٌ عَنْ الْمُنْكَرِ »[2] .

يا الله !! الإسلامُ يضعُ لك منهجاً للجلوس في الشارع مضطراً . .

الاستئذان

خرجتَ من بيتك إلى الشارعِ ، ووصلتَ إلى بيتِ صديقِك ، هل تقول : إنه صديقي ، إنه أخي ، إننا هنا نتكلّمُ عن الذوقِ في المعاملةِ ، نتكلّم عن الأدبِ الذي علّمنا إيّاه الإسلامُ .

---

(١) مسلم (٥٦٤) .

(٢) البخاري (٢٣٣٣) ، أحمد (١١٤٥٤) .

قال تعالىٰ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧ ﴾ [النور : ٢٧] .

ومعنى : ﴿ تَسۡتَأۡنِسُواْ ﴾ أي : تتأكدوا أنهم مستعدُّون لاستقبالكم ، وتستأنسوا في القرنِ الواحدِ والعشرين معناها : أنْ تتّصلَ به هاتفياً ، وتأخذَ منه موعداً ، إنها ـ أيْ : ﴿ تَسۡتَأۡنِسُواْ ﴾ ـ كلمةٌ جميلةٌ ، كلُّها ذوقٌ ، أي : تضمنُ أنه سيأنسُ بك هذا الصديقُ .

أحياناً تذهبُ إلى صديقٍ مِن دونِ موعدٍ ، فتجدُه يعتذر إليك ؛ أنه لن يستطيعَ أنْ يستقبلَك ، فتغضبُ حينها غضباً شديداً ، وتقيمُ الدنيا ولا تقعدُها ، والأصلُ أنه مِن الذّوقِ ألاَّ تغضبَ ، يقولُ تعالى :

﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٌ ٢٨ ﴾

[النور : ٢٨]

عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : « لِيَسْتَأْذِنْ أَحَدُكُمْ ثَلاَثاً ، فَإِنْ أُذِنَ لَهُ ، وَإِلاَّ فَلْيَرْجِعْ »[1] .

إيّاك أنْ تغضبَ إنِ اعتذرَ أخوك عن أنْ يستقبلَك ، ﴿ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ ﴾ .

طريقةُ قرعِ البابِ

ومِنَ السلوكيَّاتِ غيرِ الطيّبةِ والبعيدةِ كلَّ البعدِ عن الذّوقِ أنْ تجدَ مثلا

---

(١) أبو داود (٥١٨١) .

مَن يدقُّ جرسَ البابِ ، ثم يقفُ في وجهِ البابِ ، ويضعُ يديه الاثنتين على الباب !

انظر إلى أدب الإسلام ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُسْرٍ الْمَازِنِيِّ قَالَ : « كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَتَى بَيْتَ قَوْمٍ أَتَاهُ مِمَّا يَلِي جِدَارَهُ ، وَلاَ يَأْتِيهِ مُسْتَقْبِلاً بَابَهُ »(١) .

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُسْرٍ يَقُولُ : « كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا جَاءَ الْبَابَ يَسْتَأْذِنُ لَمْ يَسْتَقْبِلْهُ . . . يَمْشِي مَعَ الْحَائِطِ حَتَّى يَسْتَأْذِنَ فَيُؤْذَنَ لَهُ ، أَوْ يَنْصَرِفَ »(٢) .

الحركةُ الرفيقةُ

هناك مِنَ الناسِ صنفٌ لا يراعِي الآدابَ العامّةَ ، فتجده بعدما يدخل مكاناً ، سواءٌ أكان بيتاً أم مَصعداً أم سيارةً ، فإنه يغلقُ البابَ بشدّةٍ ، فتارةً يكسرُ الزجاجَ ، وتارةً يفزعُ الناسَ ، عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ ، وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ شَانَهُ »(٣) .

اجعلْ أيها المسلمُ هذا الحديثَ منهجاً لك ، فهو طريقُك إلى الذوقِ الرفيعِ .

---

(١) أحمد (٤/ ١٨٩) .
(٢) أحمد (٤/ ١٨٩) .
(٣) مسلم (٢٥٩٤) .

التَّطَفُّلُ في الدّعوةِ

أحيانا يدعوك أحدُ أصدقائِك إلى طعامٍ في يومِ كذا ، وفي هذا اليومِ تذهبُ ، ولكنْ ليس وحدَك ! بل تأخذُ معك شخصاً آخرَ ، فيصابُ صاحبُ البيتِ بصدمةٍ لهذا التطفُّلِ .

دعِيَ النبيُّ ﷺ هو وخمسةٌ من الصحابةِ عند رجلٍ من الأنصارِ ، وفي أثناءِ ذهابِ النبيّ ﷺ والخمسةِ إذا بصحابيٍّ آخرّ يتبعُهم ، ويمشي معهم حتى وصلوا إلى البيتِ ، فقال النبيُّ ﷺ لصاحبِ البيتِ : « إِنَّكَ أَرْسَلْتَ إِلَى خَمْسَةٍ مِنَّا ، وَإِنَّ هَذَا تَبِعَنَا ، فَإِنْ أَذِنْتَ لَهُ دَخَلَ ، وَإِلاَّ رَجَعَ ، قَالَ : أَذِنْتُ لَهُ يَا رَسُولَ اللهِ ، فَلْيَدْخُلْ »[1] .

إنّه موقفٌ محرجٌ ، ولا سيّما لصاحبِ البيتِ وأهلِهِ ، فالطعامُ لعددٍ معيَّنٍ ، وقد تكونُ الأماكنُ على الطاولةِ لعددٍ معيّنٍ ، وإذا زاد هذا العددُ فما العملُ ؟ ولكن انظر إلى أدبِ النبيِّ ﷺ ، حتى لا يضعَ صاحبَ البيتِ في مأزقٍ وحرَجٍ بادرَه ، وشرحَ له الموقفَ ، وخيّرَه ، أين هذه الذوقيّاتُ بيننا الآن ؟

ما أُخِذَ بسيفِ الحياءِ فهو حرامٌ

بعضُ الناسِ حينما يدخلُ بيتَ صديقِه تجدُ عينيه تتحركان بسرعةٍ بحثاً عن الهاتفِ ، فإذا رأى الهاتفَ رفعَ السماعةَ ، وبعدها يستأذن من صديقِه ليجريَ اتصالا واحداً سريعاً ، وهو يعلمُ أنّ صديقَه لن يرفضَ له طلباً ،

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى (١٤٣٢١) عن جابر ، والطبراني في المعجم الكبير (٥٢٤) عن أبي مسعود .

كيف يرفضُ وقد أمسكَ بالهاتفِ ؟ ثم يبدأُ الاتصالَ ، فيتّصلُ اتصالاً دولياً مثلا !! ويستمرُ هذا الاتصالَ نصفَ ساعةٍ !! هل هذا مِن الذّوقِ ؟ ؟ لقد قيل قديما : « ما أُخِذَ بِسيفِ الحياءِ فهو حرامٌ » .

وهل يراعِي حياءَ الناسِ إلاّ مَن كان عنده ذوقٌ ؟ فتجده يرى القلمَ في جيبِ زميلِه ، ثم يقولُ له : إنه قلمٌ جميلٌ ، وهذه كلمةٌ لها معنى ، فما على زميلِه إلاّ أن يقولَ : تفضَّلُ خذْه !! فيأخذُ منه القلمَ .

إلى هؤلاء نوجّه إليهم : « ما أُخِذَ بسيفِ الحياءِ فهو حرامٌ » .

طولُ المكثِ عند المُضيفِ

أحيانا ينزلُ الإنسانُ عند أقاربه ضيفاً ، ويمكثُ يوما أو يومين أو ثلاثةً ، ويكرمُه أهلُ البيتِ ، وتتفنّنُ الزوجةُ في الضيافةِ ، وتجتهدُ لترضي ربَّها أوّلاً ، ثم لترضي زوجَها باستضافةِ أهلِه وإكرامِهم ، وتكونُ الطامّةُ حينما يمكثُ الضيفُ أسبوعاً أو أكثرَ ، فيصبح هذا الضيفُ ثقيلاً ، وإذا علِم الثقيلُ أنه ثقيلٌ فليس بثقيلٍ ، ولكنه لا يعلمُ .

حينما هاجر النبي ﷺ من مكةَ إلى المدينةِ نزلَ في منزلِ أبي أيوبٍ الأنصاريّ ، إلى حينِ بناء المسجدِ النبويِّ ، وبناءِ بيتِه ، وكان بيتُ أبي أيوبٍ مِن طابقين ، فعَنْ أَبِي أَيُّوبَ « أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَزَلَ عَلَيْهِ ، فَنَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ فِي السُّفْلِ ، وَأَبُو أَيُّوبَ فِي الْعِلْوِ ، قَالَ : فَانْتَبَهَ أَبُو أَيُّوبَ لَيْلَةً ، فَقَالَ : نَمْشِي فَوْقَ رَأْسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ؟ ! فَتَنَحَّوْا ، فَبَاتُوا فِي جَانِبٍ ، ثُمَّ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : السُّفْلُ أَرْفَقُ ، فَقَالَ : لاَ أَعْلُو سَقِيفَةً أَنْتَ تَحْتَهَا ، فَتَحَوَّلَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْعُلُوِّ ، وَأَبُو أَيُّوبَ فِي السُّفْلِ ، فَكَانَ

يَصْنَعُ لِلنَّبِيِّ ﷺ طَعَاماً ، فَإِذَا جِيءَ بِهِ إِلَيْهِ سَأَلَ عَنْ مَوْضِعِ أَصَابِعِهِ ، فَيَتَتَبَّعُ مَوْضِعَ أَصَابِعِهِ ، فَصَنَعَ لَهُ طَعَاماً فِيهِ ثُومٌ ، فَلَمَّا رُدَّ إِلَيْهِ سَأَلَ عَنْ مَوْضِعِ أَصَابِعِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَقِيلَ لَهُ : لَمْ يَأْكُلْ ، فَفَزِعَ ، وَصَعِدَ إِلَيْهِ ، فَقَالَ : أَحَرَامٌ هُوَ ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : لاَ ، وَلَكِنِّي أَكْرَهُهُ ، قَالَ : فَإِنِّي أَكْرَهُ مَا تَكْرَهُ ، أَوْ مَا كَرِهْتَ ، قَالَ : وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُؤْتَى »[1] .

هل تعرفُ لماذا فعل أبو أيّوب ذلك ، ولماذا كان هذا الاختيارُ ؟ حتى لا تكونَ قدماه فوقَ النبيِّ ﷺ ، إنها قمّةٌ في الذوقِ ، وقمّةٌ الأدبِ في التعاملِ مع النبيِّ ﷺ ، ولكن انظر إلى أدبِ النبيِّ ﷺ وذوقِه الرفيعِ ، قال النبيُّ ﷺ : « السُّفْلُ أَرْفَقُ » .

مكان جلوسك عند المضيف

من السُّنَّةِ ألاَّ تجلسَ في بيتِ مَن تزورُه إلاَ في المكانِ الذي يدعوك إليه ، فلا تجلسْ في مكانٍ تختاره أنتَ ، وتصرُّ عليه إلاّ أنْ يُؤذَن لك ، فقد يكونُ المكانُ الذي اختاره الضيفُ يشرفُ على البيتِ كلِّه ، وزوجتُه محجَّبةٌ ، فكيف تتحرّكُ في أرجاءِ البيتِ ، إنّها واللهِ آدابُ الإسلامِ ، عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الأَنْصَارِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « يَؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللهِ ، فَإِنْ كَانُوا فِي الْقِرَاءَةِ سَوَاءً فَأَعْلَمُهُمْ بِالسُّنَّةِ ، فَإِنْ كَانُوا فِي السُّنَّةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ هِجْرَةً ، فَإِنْ كَانُوا فِي الْهِجْرَةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ سِلْماً ، وَلاَ يَؤُمَّنَّ الرَّجُلُ الرَّجُلَ فِي سُلْطَانِهِ ، وَلاَ يَقْعُدْ فِي بَيْتِهِ عَلَى تَكْرِمَتِهِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ »[2] .

---

(١) مسلم (٢٠٥٣) ، أحمد (٢٣٥٦٤) .

(٢) مسلم (٦٧٣) ، الترمذي (٢٣٥) ، أبو داود (٥٨٢) ، النسائي (٨٥٨) ، ابن ماجه (٩٨٠) .

إنّ الحضارةَ ليست باستخدامِ الهاتفِ المحمولِ ، والدخولِ على مواقعِ الإنترنت ، وركوبِ المركبةِ الفارهةِ فقط ، إنما الحضارةُ بالأدبِ والذوقِ والرقيّ الأخلاقيّ .

عيادةُ المريضِ

ومن الذّوقيّاتِ الإسلاميةِ في عيادةِ المريضِ ألاَّ تطيلَ الزيارةَ ، فمِنَ الذّوقِ أنْ تكونَ زيارةً خفيفةً ، إلاّ إذا كان المريضُ مستأنساً بك وسعيداً ، وهناك قصّةٌ لطيفة للإمامِ أبي حنيفة ، فقد كان مريضاً وعاده أربعةُ رجالٍ ، فكانت زيارتُهم ثقيلةً ، وأطالوا الجلوسَ ، والإمامُ مريضٌ ، فضاقَ بهم ذرعاً ، وتعِب تعباً شديداً ، ومع ذلك فهُم ما زالوا جالسين ، فماذا فعلَ الإمامُ ؟ قال لهم : قوموا فقد شفاني اللهُ عز وجل !!

إنّ الإسلامَ يعلّمنا ويربّينا على أنْ نراعيَ ظروفَ المريضِ وحالتَه الصحيّةَ .

الذّوقُ مع الجيرانِ

يعلّمنا الإسلامُ أننا إذا دخلنا البيتَ ومعنا فاكهةٌ أو طعامٌ نادرٌ تحبُّه النفسُ ، فرآه أحدُ الجيرانِ ، سواءٌ كان صغيراً أو كبيراً ، فلا بد أنْ نقدّمَ لهم منه ، طالما أننا لم نخبّئه .

وردَ في الحديثِ حولَ الأدبِ مع الجارِ : « وَإِذَا اشْتَرَيْتَ فَاكِهَةً فَأَهْدِ لَهُ مِنْهَا ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَأَدْخِلْهَا سِرًّا ، وَلاَ يَخْرُجْ بِهَا وَلَدُكَ لِيَغِيظَ وَلَدَهُ ، وَلاَ تُؤْذِهِ بِقُتَارِ قِدْرِكَ ـ برائحةِ طَعامك ـ إِلاَّ أَنْ تَغْرِفَ لَهُ مِنْهَا »[1] .

---

(١) البيهقي في شعب الإيمان (٩٥٦٠) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .

وبعضُ الناسِ يتعمَّدُ أن يُرِيَ جيرانَه ما يحملُ من طعامٍ لذيذٍ ، أو يتحدثُ عمّا في البيتِ من طعامٍ طيّبٍ تفاخراً ، أو يتحدّثُ عن رحلاتِه وإنفاقِه ، هذا من قلّةِ الذّوقِ الذي نُهينَا عنه .

كان هناك شابٌّ يسكنُ بجوارِ الإمامِ أبي حنيفةَ ، وكان يشربُ الخمرَ ، ويغنِّي طوالَ الليلِ وهو سكرانُ ، وهو يقولُ :

أَضَـاعُـونِـي وَأيُّ فتًـى أَضَـاعُـوا[1]

وكان كلّ يومٍ هو على هذا الحالِ ، يقوم الإمامُ أبو حنيفةَ إلى صلاةِ الفجرِ فيزعجُه هذا الشابُّ ، فكان أبو حنيفةَ يتحيّنُ الفرصةَ المناسبةَ ليعظَ فيها هذا الشابَّ ، ويرقِّقَ قلبَه للتوبةِ ، وفي يومٍ من الأيامِ قامَ الإمامُ أبو حنيفةَ ليصلّيَ الفجرَ فلم يسمعْ صوتَ هذا الشابِّ ، فسألَ عنه ، فعرفَ أنه قد قُبِضَ عليه ! لأنه ضُبِطَ يشربُ الخمرَ ، فذهب أبو حنيفةَ إلى صاحبِ الشرطةِ ، وقال له : هلاّ أفرجتم عنه لي ، فقالوا : إنه شربَ الخمرَ ! قال : أخرِجوه مِن أجلي ، فأخرَجوه ، فأخذه أبو حنيفةَ ، وجعلَه يركبُ خلفه على بغلته ، ولم يتكلمْ معه كلمةً واحدةً حتى وصل إلى البيتِ ، وحينها قال أبو حنيفةَ : هل أضعناك يا فتًى ؟ فقال : لا ، واللهِ ، ولا أعودُ إليها أبدا ، إنه يشربُ الخمر ! ؟ ولكن انظر إلى نتيجةِ اللطفِ والذوقِ .

إنّ كثيراً من الشبابِ فِطرتُهم طيّبةٌ مع كلِّ ما يفعلونه ، ولكنهم لم

(١) هذا شطر من بيت لأمية بن أبي الصلت ، وتمامه :
ليوم كريهةٍ وسداد ثغرٍ .

يجدوا أمثالَ أبي حنيفةَ الذي يتحيّنُ الفرصَ ، ويتخيّرُ الوقتَ ، ويفتحُ بمفتاحِ الذّوقِ أبوابَ قلوبهم المغلقةَ ، أو التي كنا نظنّ أنها مغلقةٌ ! انظر إلى نتيجةِ اللّطفِ والذوقِ .

الذَّوقُ في المسجدِ

ومن الذّوقياتِ والآدابِ التي علّمها إيّاها الإسلامُ في المسجدِ ، وأصبحت من البديهياتِ ألاَّ نتخطّى الرقابَ ، وأن نجلسَ حيث ينتهي بنا المجلسُ ، وأن نفسحَ لإخواننا ليجلسوا ، وألاّ نجلسَ في مكانٍ نسدُّ بجلوسِنا طريقاً ، وأن نجلسَ فيه جِلسةً تنمُّ عن أدبٍ جمٍّ ، فما رُئِيَ النبيُّ ﷺ مادًّا رِجليه قط ، وأنْ ندعَ كلَّ حركةٍ أو صوتٍ يؤذي الجالسين ، وأنْ نحافظَ على نظافةِ المسجدِ ، وعلى حرمتِه ، فلا نرفعُ أصواتنا فيه ، ولا نتكلمُ في شؤون الدنيا ، وأن نكونَ في أعلى درجاتِ النظافةِ في البدنِ والثيابِ ، وفي البعدِ عن كلّ أكلةٍ تؤذي رائحتُها روادَ المسجدِ .

إنه بيتُ اللهِ ، فاحرص أنْ تكونَ فيه في قمّةِ الذوقِ وقمّةِ الأدبِ .

الهاتفُ المحمولُ تتأذّى منه الملائكةُ ! بدليلِ أنّ الملائكةَ تتأذّى مما يتأذّى منه بنو آدم ، كما قال رسولُ الله ﷺ .

فمن الذّوقياتِ المطلوبةِ في القرنِ الواحدِ والعشرين أنْ تغلقَ الهاتفَ المحمولَ وأنت ذاهبٌ إلى بيتِ اللهِ ، وهذا أمرٌ مهمٌّ ، فأحيانا تكونُ في بيتِ اللهِ ، وبعد مجاهدةٍ في صلاتك تسعدُ بنفحاتٍ من الله ، وبأُنسٍ به ، وفجأةً تسمع صوتَ الهاتفِ المحمولِ ! فتذهبُ هذه النشوةُ ، لذلك اضطرّ أحدُ أئمةِ المساجدِ أن يقولَ قبل أن يبدأَ بالصلاةِ : استووا

واعتدلوا ، وأغلقوا هواتفكم ، فإن إغلاقَ الهواتفِ من إقامةِ الصلاةِ .

لذلك ندعو كلَّ متوجِّهٍ إلى المسجدِ أن يغلقَ هاتفَه المحمولَ حفاظاً عليه من لعنةِ المصلّين ودعائهم عليه ، فقد يقع منك ويتعطّلُ !! فإن المصلين يتأذّون منه ، وإن الملائكةَ تتأذّى مما يتأذّى منه بنو آدمَ .

الأدبُ في الدعوةِ إلى اللهِ

وإليك هذا الموقف الطريف البسيط ، فإنّ له دلالاتٍ عظيمةً ، أحيانا يتعوّدُ الناسُ على أشياءَ لم يَرِدْ لها أصلٌ في السُّنَّةِ ، وحينما نريدُ أنْ نقوِّمَها يكونُ التقويمُ على نحوٍ خاطئٍ ، وبشكلٍ منفّرٍ .

وقفَ شيخٌ كبيرٌ في الصلاةِ ، وكان بجواره شابٌّ على وجهه علامةُ التديُّنِ ، وبعدما انتهى الإمامُ ، أُعجِبَ هذا الشيخُ الكبيرُ بالشابِّ ، وأُعجِبَ بخشوعِه في صلاته ، ومدَّ الشيخُ الكبيرُ يدَه لهذا الشابِ داعياً له أنْ يرزقَه اللهُ حَجَّةً أو عمرةً ليصلِّيَ في بيتِ اللهِ الحرامِ ، فقال له مختصراً هذا الدعاءَ : حَرَماً ، فنظرَ إليه الشابُّ المتديِّنُ بتجهُّمٍ وغلظةٍ قائلا : لم يَرِدْ في السُّنَّةِ حَرَماً ! فقال الرجلُ الكبيرُ : وهل قلَّةُ الذّوقِ هي التي وردتْ في السُّنَّةِ ! ؟

ولكنْ لغيابِ الفهمِ ، ولغيابِ حُسْنِ التّعامُلِ مع الناسِ بالحكمةِ ، والموعظةِ الحسنةِ سيظلُّ هذا الشيخُ على موقفِه بسببِ هذا الشابِّ .

أيّها الشابُّ افهمْ دينَك ، وتلطَّفْ مع الناسِ ، وتأدَّبْ في معاملتك معهم ، فالذّوقُ مفتاحُ القلوبِ ، وقلّةُ الذّوقِ تصدُّ الناسَ عن سبيلِ اللهِ .

ولنتعلَّمْ مِن الطِّفلين الحَسَنِ والحُسَيْنِ سِبْطَيْ رسول الله ﷺ ، هذه

قصة ينبغي أنْ يدرسَها كلُّ مَن يدعو إلى اللهِ عز وجل ، ويجعلَها دائما نصْبَ عينيه .

ذاتَ يومٍ وجدَ الحسنُ والحسينُ سِبطَا النبي ﷺ رَجلاً لا يُحسِنُ الوضوءَ ، فماذا فَعَلاَ ؟ انظرْ إلى فِعلِهما ، وتعلَّمِ الذّوقَ في الدعوةِ إلى اللهِ منهما .

ذهبَا إليه ، فقال الحسنُ : « يا سيّدي ، أخي هذا يدّعي أنه يتوضّأ أحسنَ مني ، وأنا أقسمُ أنني أتوضأ كما يتوضأُ النبيُّ ﷺ ، فاحكم بيننا ، وانظرْ إلى وضوئِه ووضوئي ، ثم قل أيّنا يتوضأُ كما يتوضّأ النبيُّ ﷺ ، فدخل الحسنُ وتوضّأ ، وأسبغَ الوضوءَ ، وأحْسنَه ، ودخلَ الحسينُ ، وتوضّأ مثلَ أخيه فقال الرَّجلُ : واللهِ إني لا أجيدُ الوضوءِ كما توضأتما » ، ما رأيُك في تصرُّفِ الحسنِ والحسينِ !! تعلّمِ الذّوقَ والأدبَ الرفيعَ من الحَسَن والحُسينِ ، واقتدِ بهما تصلْ إلى ما تريدُ بأرقِّ وألطفِ الأساليبِ ، فإنه مَن أمَرَ بمعروفٍ فليكنْ أمرُه بمعروفٍ .

الذّوقُ في الحديثِ

سننتقلُ إلى الحديثِ عن الذّوقِ في الكلامِ مع الناسِ ، وفيه من اللطائفِ الكثيرُ والكثيرُ ، وأوّلُ الأشياءِ التي يقعُ فيها بعضُ الناسِ هو المقاطعةُ وعدمُ سماعِ آراءِ الآخرين ، وهذه الأشياءُ تدلُّ على قلّةِ الذّوقِ .

ولذلك إذا أردتَ أن يكرهَك الناسُ فعليك بمقاطعتِهم وعدمِ إعطائهم الفرصةَ ليعبّروا عن وجهةِ نظرِهم ، وكلما عرَضوا فكرةً قلْ لهم : إنكم على خطإٍ ، وعندي أفضلُ منها ، دائما أوجدْ عندهم إحساساً بأنهم

لا يفهمون ، دائما عليك بتوبيخِهم ، فإذا فعلت هذا فسيكرهك جميعُ الناسِ .

لنتعلم من نبينا ﷺ كيف يحبُّك الناس ، ويقدرونك ، وإنها واللهِ لكلمات تُدرَسُ ليتعلَّمَ الناسُ فنَّ الكلامِ وأسلوبَ الحوارِ .

جاء عقبة بن ربيعة ممثلا لقريش ، وكان سيداً فيهم ، فجلس إلى رسول الله ﷺ فقال : « يَا ابْنَ أَخِي ، اسْمَعْ مِنِّي أَعْرِضْ عَلَيْكَ أُمُوراً تَنْظُرُ فِيهَا ، لَعَلَّكَ تَقْبَلُ بَعْضَهَا ، فَقَالَ ﷺ : قُلْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ أَسْمَعْ ، قَالَ : يَا ابْنَ أَخِي إِنْ كُنْتَ إِنَّمَا تُرِيدُ بِمَا جِئْتَ بِهِ مِنْ هَذَا الأَمْرِ مَالاً جَمَعْنَاهُ لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا حَتَّى تَكُونَ أَكْثَرَنَا مَالاً ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ بِهِ مُلْكاً مَلَّكْنَاكَ عَلَيْنَا ، وَإِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي يَأْتِيكَ رِئْياً[1] تَرَاه وَلاَ تَسْتَطِيعُ رَدَّهُ عَنْ نَفْسِكَ طَلَبْنَا لَكَ الطِّبَّ »[2] .

إنها اختياراتٌ سخيفةٌ ؛ مالٌ ، وملْكٌ ، ومداواةٌ مِن مرضٍ .

انظرْ إلى ذوقِ وأدبِ النبيّ ﷺ ، بَدأه بكُنيته « يَا أَبَا الْوَلِيدِ » مِن بابِ التلطُّفِ ولِينِ الجانبِ ، ثم قال : « قُلْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ أَسْمَعْ » ، ولم يقاطعْه النبيُّ ﷺ ، وبعد أنْ أنهى عتبةُ كلامَه قال النبي ﷺ : « أَفَرَغْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ ؟ » ، قال : نعم ، وللقصّةِ تتمّةٌ .

ثمّةَ طالبٌ بريطانيٌّ جامعيٌّ أسلمَ بسببِ الذّوقِ الإسلاميِّ .

---

(١) الرِّئْي ـ بالكسر ـ المنظرُ ، والمعنى ما يُرى لك . انظر (لسان العرب مادة رأي) .

(٢) القصة بتمامها في السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٣١) .

علّمنا النبيُّ ﷺ حينما نكونُ ثلاثةً ألاّ يتناجَى اثنان دونَ الثالثِ ، فإنّ ذلك يؤذيه .

لقد كان صديقان مسلمان يدرسان في بريطانيا ، ويتحدّثان لعربيةَ والإنكليزيةَ ، فكانا يتحدثان العربيةَ طالما كانا بمفرديهما ، وحينما يأتي هذا الصديقُ البريطانيُّ يتحوّلان إلى الإنكليزيةِ ، حدث هذا عدّةَ مراتٍ ، فتعجَّب هذا الصديقُ من ذلك الفعلِ أيّما تعجّبٍ ، فأراد أنْ يستفسرِ ، ويعرفَ السببَ ، فقالا له : نهانا نبيُّنا ﷺ أنْ نتحدّثَ سويًا بلغةٍ لا يفهمُها ثالثُنا ، فما كان منه إلا أنْ قالَ باللغة الإنكليزية ما معناه : « نبيُّكم هذا حضاريٌّ جدًّا » ، فأسلمَ هذا الصديقُ بعدَ ستّةِ أشهرٍ ، وقد عكفَ على دراسةِ الإسلامِ ، وكان من كلامه : « أوّلُ شيءٍ وقع في قلبي هو ذوقُ الإسلامِ في التعاملِ مع الآخرين » .

إنّنا نريدُ أنْ نَخرُجَ من خُلُقِ الذّوقِ بشيءٍ هامٍّ جدا ، ألاَ وهو عدمُ إيذاءِ شعورِ الآخرين أيًّا كان الفعلُ ، فلقد كان النبيُّ ﷺ إذا أنكرَ فعلاً مِن إنسانٍ لم يذكر اسمَه صراحةً ، بل تجده يقول : ما بال أقوام .

ومن أمثلة ذلك ، هي كثيرة جدًّا : قولُه » . . . مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَشْتَرِطُونَ شُرُوطاً لَيْسَتْ فِي كِتَابِ اللهِ . . . »[١] ، و : « مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فِي صَلاَتِهِمْ . . . »[٢] ، و : « مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَتَنَزَّهُونَ عَنْ الشَّيْءِ أَصْنَعُهُ ، فَوَاللهِ إِنِّي لأَعْلَمُهُمْ بِاللهِ وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً »[٣] ، « مَا

(١) البخاري (٤٤٤) ، مسلم (١٥٠٤) عن عائشة .
(٢) مسلم (٧١٧) عن أنس .
(٣) البخاري (٥٧٥٠) عن عائشة .

بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا ، لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ . . . »[١] ، « مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَلْعَبُونَ بِحُدُودِ اللهِ ، يَقُولُ أَحَدُهُمْ : قَدْ طَلَّقْتُكِ ، قَدْ رَاجَعْتُكِ ، قَدْ طَلَّقْتُكِ »[٢] .

ولا يصرِّحُ ﷺ حفاظاً على شعورِ الآخرين ، فهذا من قمّةِ الذوقِ ، فلتكن من الآنَ لمّاحاً ، إذا أحسستَ أنّ الكلمةَ التي ستقولُها ستضايقُ مَن أمامك فلا تقُلْها .

ومِن تطبيقاتِ خُلقِ الذوقِ الذوقُ مع أصحابِ المراكزِ العليا ، أمثالِ الملوكِ والأمراءِ والعلماءِ ، فمن السنّةِ أنْ ننزلَ الناسَ منازلَهم إلا في حالةِ الحربِ ، وتعلَّمْ من النبيِّ ﷺ .

بعثَ ﷺ برسالةٍ إلى كسرى ملكِ الفرْسِ الذي يسجدُ للنّارِ ، يقول له فيها : « مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ إِلَى كِسْرَى عَظِيمِ الفُرْسِ » .

وبعثَ إلى هرقلَ ملِكِ الروم يقول له : « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ ، سَلاَمٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى ، أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلاَمِ ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمُ الأَرِيسِيِّينَ . . . »[٣] .

فهل كسرى وهرقلُ عظيمان عند رسولِ الله ؟

---

(١) البخاري (٤٧٧٦) ، مسلم (١٤٠١) عن أنس .
(٢) ابن ماجه (٢٠١٧) ، البيهقي في السنن (١٤٦٧٤) عن أبي موسى .
(٣) البخاري (٧) ، مسلم (١٧٧٣) عن ابن عباس .

الذوقُ والأدبُ مع أصحابِ الفضلِ عليك

أدبُ العبَّاسِ مع النبيِّ ﷺ

كلُّ مَن كان له فضلٌ عليك كان له حقٌّ عليك ، وأوّلُ هذه الحقوقُ أنْ تتأدّبَ معه ، وانظر إلى أدبِ العباسِ رضي الله عنه ، فمِن المعروفِ أنّ العباسَ أكبرُ سنًّا من النبيِّ ﷺ ، لكنْ حينما سُئِل العبّاسُ : « أأنت أكبرُ أم رسولُ الله ؟ قال كلماتٍ رقيقةً ، كلُّها أدبٌ وذوقٌ وحبٌّ ، قال : هو أكبرُ منّي ، وأنا وُلِدتُ قبْلَه » .

أدبُ أبي بكر الصدِّيق مع النبيِّ ﷺ

حينما هاجرَ النبيُّ ﷺ هو وسيّدُنا أبو بكر انتظره الأنصارُ على مشارفِ المدينةِ ، ولم يكن الأنصارُ يعرفون النبيَّ ﷺ ، فرأوا راحلتين قادمتين ، وكان سيّدُنا أبو بكرٍ الصديقِ هو المتقدِّمَ ، لأنه كان خائفاً على النبيِّ ﷺ ، فكان يحميه ، فظنَّ الأنصارُ أنّ الرسولَ ﷺ هو أبو بكر الصديق ، فأسرعوا نحو ناقةِ أبي بكرٍ ، وأخذوا بخطامِها .

إنه موقفٌ حرجٌ ، كيف تصرّفتَ فيه يا أبا بكرٍ ؟ هل قلت لهم : لستُ أنا برسولِ اللهِ ، إنني أبو بكر ؟ فإنك لو قلتَ هذا لما كانت كلمةً لطيفةً ، فماذا فعلتَ يا أبا بكر ! ؟

لقد خلعَ رداءَه ، وأظلّ به رأسَ النبيِّ ﷺ ، فكانت لمحةً طيّبةً ، وذوقاً رفيعاً ، فعرفَ الأنصارُ أنه ليس برسولِ الله ﷺ ، وأسرعوا إلى النبيِّ ﷺ .

حقًّا ، إنه أبو بكر الصديقُ .

أدبُ الإمامِ الشافعيِّ

أحيانا يزولُ حاجزُ الاحترامِ بينك وبين مدرِّسك ، ولا سيّما حين تكونان في لقاءٍ خاصٍ ، ولكن انظر إلى الإمامِ الشافعيِّ ، كيف كان يتأدّبُ مع أستاذِه ، يقول : « لا أستطيعُ أنْ أقلِّبَ الورقَ بصوتٍ مرتفعٍ بين يدي أستاذي كي لا أزعجَه ، ولا أستطيع أنْ أشربَ الماءَ أمامَ أستاذي إجلالاً له » .

واللهِ إننا لنحتاجُ اليومَ لأمثالك أيّها الإمامُ الشافعيُّ ، وتخيّلْ معي لو كان الإمامُ الشافعيُّ بيننا الآن ، ونظر إلى ما يحدثُ بين الطالبِ والمعلِّمِ ، ماذا كان سيفعل ؟

المبالغةُ في الذّوقِ مِن قلّةِ الذّوقِ

وأخيراً : من الذّوقِ في التعاملِ مع الناسِ نقطتان :

الأولى : أنّ المبالغةَ في الذّوقِ مِن قلّةِ الذّوقِ ، بمعنى ألاّ تتكلّفَ في الذوقِ ، فمثلا عند عيادتِك للمريضِ قلنا : لا تطلْ إلا إذا أَذِنَ لك ، أو إذا كان يأنسُ بك ، فيطلبُ منك أنْ تجلسَ ، ويقسمُ عليك ، فلا تبالغْ في الذّوقِ ، وتقول : لقد علَّمونا ألاّ نطيلَ على المريضِ ، أنا عندي ذوقٌ ، المريضُ يقسمُ عليك ، وأنت مصرٌّ ، إنّ المبالغةَ في الذّوقِ من قلّةِ الذّوقِ .

إليك هذه المقولةَ للإمامِ الشافعيّ : « أثقَلُ إخواني على قلبِي مَن يتكلَّفُ لي ، وأتكلَّف لهُ ، وأَحَبُّ إخواني إلى قلبِي مَن أكونُ معه كما أكونُ وحدي » .

الثانية : أنّ المبالغةَ في الجدّيّةِ مِن قلّة الذّوقِ أيضا ، فعدمُ الضحكِ والمبالغةُ في الجدّيّةِ ليس من الذّوقِ في شيءٍ ، فقد كان عليه الصلاة والسلام يضحكُ مما يضحكُ منه أصحابُه ، ويتعجّبُ مما يتعجّبون ، إياك أنْ تفهمَ أنّ عدمَ الضحكِ من الذّوقِ ، إنه من قلّةِ الذّوقِ أحياناً ، فلا بدّ للإنسانِ أنْ يفهمَ دينَه فهماً صحيحاً مِن غيرِ إفراط ولا تفريط .

كتبَ رجلٌ صالحٌ قبلَ موتِه رسالةً لابنتِه يقولُ فيها : « بنيّتي ، لم أَعُدْ أفزعُ من الموتِ ، ولو جاءني اللحظةَ ، لقد أخذتُ من الحياةِ كثيراً ، أقصدُ : أعطيتُ كثيراً ، أحيانا يا بنيّتي يصعبُ التفرقةُ بين الأخذِ والعطاءِ ؛ لأنهما عند المؤمنِ لهما مدلولٌ واحدٌ ، في كلّ مرّةٍ أعطيتُ فيها أخذتُ منها ؛ بل أخذتُ أكثرَ مما أعطيتُ »[1] .

* * *

عُذراً يا صَلاحَ الدِّين

نظراً لشدّةِ الآلامِ التي تنتابُ أمّتَنا ، لِما جرى أخيراً على الساحةِ العربيةِ والإسلاميةِ فنحن مضطرُّون أنْ نقدِّمَ اعتذارَنا للبطلِ صلاحِ الدِّينِ الذي طردَ الفرنجةَ القدامى من بلادِ المسلمينِ ، ونحنُ بسببِ أخطاء كبيرةٍ ارتكبَها بعضُنا أعَدْناهم إلى بعضِ بلادِ العربِ والمسلمين .

فعذراً لك يا صلاحَ الدِّين ، وألفَ عذرٍ ، أنت الذي طردتَ الفرنجةَ القدامى من بلادِ الشامِ ومصرَ والعراقِ ، وأنت الذي حرّرتَ دمشقَ والقدسَ من أيديهم ، وقد قلت قولتك المشهورة : « لن يرجعوا إليها

(١) هذا الموضوع مقتبس من كتاب الذوق الإسلامي للداعية عمرو خالد .

ما دمنا رجالاً » ، عذراً يا صلاحَ الدِّينِ ، لقد رجعوا في المرّةِ الأولى بعد الحربِ العالميةِ الأولى ، ولما دخل قائدُهم إلى دمشقَ ، ووقف عند قبرِك ، وقال : ها قد عُدْنا يا صلاحَ الدِّين ، فعذراً ، وألفَ عذرٍ لك ، لقد رجعوا مرةً ثانيةً ، بسببِ أخطاء ارتكبها بعضُنا ، ولسانُ حالِهم يقول ثانية : ها قد عُدنا يا صلاحَ الدّين ، ولئلاّ تقلقَ علينا كثيراً ؛ إنّهم يقولون : إنما عادوا كي ننعمَ بحريةٍ كحريتهم ، وسلامٍ كسلامِهم ، وبرخاءٍ كرخائهم ، ولا أتمنّى عليك أيّها القائدُ الفذُّ أنْ تسألَ أهمْ يحقّقون هذه الأهدافَ بوسائلَ من جنسِها ، أم بوسائلَ مناقضةٍ لها ؟ من أجل أنْ تكونَ مستريحاً لا تسألْ ، إنّ وسائلَهم إفقارٌ ، وإضلالٌ ، وإفسادٌ ، وإذلالٌ .

إنها ردّةٌ ولا صدِّيقَ لها ، إنها هجمةٌ تتريةٌ ولا قُطزَ لها ، إنها حملة فرنجيةٌ ، وأنت غائبٌ عنها .

عذراً يا صلاحَ الدِّين ، فلقد كنتَ دائما ترتسمُ معالمُ الحزنِ والأسى على وجنتيك ، ولم يكن للابتسامةِ مكانٌ ولا نصيبٌ على شفتيك ، فلما كنتَ تُسألُ : لماذا لا تضحكُ يا صلاح الدين ؟ كان جوابك المتكرر : « إني أستحي مِن اللهِ أنْ أضحكَ ، وما يزالُ المسجدُ الأقصى بيدِ المعتدين » .

عذراً يا صلاحَ الدِّين ، وأنت الذي وصلَك خبرُ اعتراضِ أميرِ الفرنجةِ أرناطَ الذي احتلَّ قلعةَ الكركِ في الأردنِ ، ومِن هناك راحَ يقطَعُ الطريقَ على الحُجّاجِ المسلمين المتوجّهين مِن الشامِ نحو الحجازِ ، فكان يقتلُ الرجالَ ، ويسبي النساءَ ، وهو يقول لهم : نادوا من ينتصر لكم ، فلما

سمعتَ ما قاله بكيتَ ، وانسابت الدموعُ من عينيك ، وقد قلتَ قولتَك المشهورةَ : « أنا سأنوب عن رسولِ اللهِ بنصرةِ أمّته » ، وهذا ما كان منك أيّها البطلُ الذي ما هدأ لك بالٌ ، ولا سكنتْ لك جارحةٌ حتى وفّيتَ بوعدك يومَ حطّين ، يوم انتصرتَ على ملوكِ أوربةَ وأمرائِها ، ويومَ وقعَ أرناطُ في الأسرِ ، فمثُلَ بين يديك ، وذكّرتَه بما قال ، وقلت له : يا أرناطُ ، أنا أنوب اليومَ عن رسولِ اللهِ بالدفاعِ عن أمّته ، ولم تذكرِ الرواياتُ التاريخيةُ أنّك تأكدّتَ من شخصيةِ أرناطَ بفحصِ حامضِه النوويّ .

عذراً يا صلاحَ الدِّينِ ، وأنت الذي كنتَ كلَّ مساءٍ بعدَ أن ترجعَ مِن قتالِ الأعداءِ القدامى يومَ حطّين فكنتَ تخلعُ عباءتك وعمامتك ، وتنفضُ ما علقَ عليها من غبارٍ في كيس ، وتجمعُ ذلك الغبارَ حيث أوصيتَ أولادك أنْ إذا متَّ أنْ يضعوا هذا الغبارَ تحت رأسِك ، حتى إذا جاءَك الملَكان في القبرِ يسألانك كما يُسألُ كلُّ إنسانٍ عند موتِه في قبرِه . فإذا رأَيا ذلك الكيسَ مِن الغبارِ قالا : ما هذا الكيسُ يا صلاحَ الدّين ؟ فتقول لهم : هذا غبارُ الجهادِ في سبيلِ اللهِ ! !

يـــا سعـــدُ بلّـــغْ خـــالـــداً إنّ القتـــــالَ لـــــه رجـــــالُ

عذراً يا صلاحَ الدِّين ، يا من هزَمتَ الفرنجةَ القدامى حتى أصبحَ اسمُك على لسانِ النساءِ في أوربةَ ، يخوِّفْنَ به أولادهنّ في الليلِ لينامُوا ، نم يا ولدي ، وإذا لم تنمْ فسيطلعُ علينا صلاحُ الدّينِ ، لقد قذفتَ الرعبَ في نفوسِ أهلِ أوربة ، وشكّلتَ لهم عقدةً نفسيّةً اسمُها صلاحُ الدّينِ .

فعذراً وألفَ عذرٍ يا أيّها القائدُ الفذُّ ، لِمَا حلّ بنا مِن بعدك ، ومن أجلِ أنْ تبقى منسجماً مع إيمانِك الكبيرِ باللهِ نقول لك :

لقد هان أمرُ اللهِ علينا مِن بعدك ، فَهُنَّا على اللهِ ، وقد تحقَّقتْ نبوءةُ القرآنِ فينا ، قال تعالى :

﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا ۝٥٩ ﴾ [مريم : ٥٩] ، وقد لقِينَا ذلك الغيَّ .

ومنِ أجلِ أنْ نطَمئِنك نذكِّرُك بقولِ رسول الله ﷺ الذي دافعتَ عن المسلمين نيابة عنه ، عَنْ مُعَاوِيَةَ قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : « لاَ يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللهِ مَا يَضُرُّهُمْ مَنْ كَذَّبَهُمْ ، وَلاَ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ » ، فَقَالَ مَالِكُ بْنُ يُخَامِرَ : سَمِعْتُ مُعَاذاً يَقُولُ : وَهُمْ بِالشَّأْمِ ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : هَذَا مَالِكٌ يَزْعُمُ أَنَّهُ سَمِعَ مُعَاذاً يَقُولُ : وَهُمْ بِالشَّأْمِ[1] .

قال مستشارُك ومرافقُك : كنتَ خاشعَ القلبِ ، غزيرَ الدمعةِ ، إذا سمعتَ القرآنَ أو تلوْتَه دمعتْ عيناك ، وكنتَ ـ رحمك اللهُ ـ كثيرَ التعظيمِ لشعائرِ الدِّينِ ، كنتَ ناصرا للتوحيدِ ، وقامعاً أهلَ البدعِ ، لا تؤخِّرُ الصلاة عن وقتِها ، وكانت لك ركعاتٌ تصلّيها في جوفِ الليلِ ، وكنتَ إذا سمعتَ أنّ العدوّ داهمَ المسلمين خَررتَ إلى الأرضِ ساجدا للهِ تدعو بهذا الدعاء : « إلهي قد انقطعتْ أسبابي الأرضيةُ في نصرةِ دينِك ، ولم

(١) البخاري (٣٤٤٢) ، مسلم (١٠٣٧) .

يبقَ إلا الإخلادُ إليك ، والاعتصامُ بحبلِك ، والاعتمادُ على فضلِك ، أنت حسبي ، ونِعمَ الوكيلُ .

إنّ الأمّةَ العربيةَ والإسلاميةَ تمرُّ بمحنةٍ عظيمةٍ ، نرجو أنْ تكونَ وراءَها منحةٌ ربّانيةٌ ، ليست شرقيةً ولا غربيةً ، ولكنها عُلويّةٌ سماويّةٌ ، وتعاني هذه الأمّةُ من شدّةٍ لم تشهد مثلَها في التاريخِ الحديثِ ، نرجو أن يعقُبَ هذه الشِّدّةَ شَدّةٌ إلى اللهِ عز وجل ، تستحقُّ بعْدها أنْ تُستخلفَ ، وأنْ تمكَّنَ في الأرضِ .

وإنّنا نقولُ ما قاله صلاحُ الدّينِ ، ونحن نرى جيوشَ الفرنجةِ من جديدٍ تداهمُ أرضَ العربِ والمسلمين : اللهمّ وقد انقطعتْ أسبابُنا الأرضيّةُ في نصرةِ دينك ، ولم يبق لنا إلا الإخلادُ إليك ، والاعتصامُ بحبلك ، والاعتمادُ على فضلك ، أنت حسبُنا ، ونِعْمَ الوكيلُ .

* * *